

القرآن الكريم نص موثق

اللغة العربية لغة أصيلة، ليس لها طفولة، وليس لها شيخوخة، لأننا استقبلناها منذ العصر الجاهلي قوية التراكيب، رائعة الأساليب. وكانت هذه اللغة مرآة صافية للشعر الجاهلي، والشعر الجاهلي بشهادة الناقدين جزالة في اللفظ وفخامة في المعنى، وقدرة في التصوير، وروعة في التعبير.

ولقوة هذه اللغة المتمثلة في الأدب الجاهلي شعره ونثره كانت مؤهلة لأن تستقبل القرآن الكريم بجلال بيانه ، وروعة أساليه ، وسمو معانيه . وواجهها القرآن الكريم بالتحدي ، فسقط في يدها ، واستسلمت لهذه القوة البلاغية ، ووضعت اللغة العربية بعد نزول القرآن الكريم نفسها في حقله لتنبت بأذن ربها نباتا حسنا يؤتي أكله في كل زمن ، وفي كل عصر تحت ظلال القرآن الكريم ، وفي ضوء شمسهِ المشرقة .

والقرآن الكريم نصر موثق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

وتوثيق النص القرآنى حقيقة لا يختلف فى مجالها اثنان ، لأن هناك جهداً كبيراً قام به الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه من أجل توثيق هذا النص العظيم الذى انفرد من بين الكتب المقدسة التى سبقته بهذا التوثيق المكين الذى وصل إلى الذروة ، وبلغ القمّة ، وهذا سرّ خلوده، وأحد مفاتيح إعجازه .

نعم ، سجل القرآن الكريم فى مصحف ظل " ينقله أهل المشرق والمغرب من أمثالهم جيلاً جيلًا . لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف ... لا يشكّون ولا يختلفون فى أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أتى به ، وأخبر أن الله عز وجل أوحى إليه . وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك ، ثم أخذ عن أولئك حتى وصل إلينا " ^(١) .

ومراحل توثيقه في عهد الرسول عليه السلام مرت في خطوات خمس

(١) انظر الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٨١، ٢.

١ - نزول القرآن منجماً :

إن نزول القرآن الكريم منجماً كان لأسباب عدة، ذكرها المفسرون ، وأهم هذه الأسباب يرجع إلى توثيق النص القرآني ، وإحكام حفظه ، لأن نزوله مفرقاً أو مجزأً يساعد على حفظه وتثبيته في الصدور .

ومن المعروف أن القرآن الكريم نزل في عشرين أو ثلاث وعشرين على اختلاف في الأقوال ، وهي مدّة طويلة تكفي لتثبيته من كثرة ترديده ، وتلاوته مصداقاً لقوله تعالى «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا»^(١) .

٢ - كتابته حين النزول :

هذه هي الخطوة الثانية في التوثيق ، فقد كان للرسول عليه السلام كتاب وحي يتلقفون ما ينزل عليه ، فيكتبونه في وعى وإدراك ، ودقة وإتقان ، وقد بذل هؤلاء الكتاب أنفسهم كما يقول ابن الجزري في «النشر» : «وتلقوه من النبي عليه السلام حرفاً حرفاً ، لم يهملوا منه حركة ولا سكوناً ، ولا إثباتاً ولا حذفاً ، ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم»^(٢) .

وقد تمثل حرص النبي صلى الله عليه وسلم على كتابة القرآن حين نزوله على هذا المستوى الكبير في الدقة والإتقان حين منع كتابة شيء عنه سوى القرآن حتي لا يختلط به مالمس منه ، يدل على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري أن النبي عليه السلام قال : «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليُمحَ»^(٣) .

٣ - التنافس الكبير على حفظ القرآن الكريم ، وكثرة تلاوته .

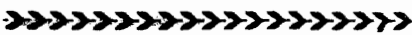
هذا التنافس كان خطوة ثالثة في توثيق النص القرآني يدل على ذلك ما نقله الرواة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : «اقرأ القرآن في كذا ليلة يدعوه إلى التيسير ، وهو يقول : إني أطيق أكثر من ذلك إلى أن قال له : اقرأ القرآن في ثلاث ليال»^(٤) .

(٢) النشر في القراءات العشر ١ / ٦

(٤) مقدمتان في علوم القرآن / ٢٧

(١) الإسراء / ١٠٦ .

(٣) تنقيح العلم للخطيب البغدادي ٢٩ .



٤ الخطوة الرابعة فى التوثيق أَنَّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعرضون ما يحفظونه على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونذكر من هؤلاء الصحابة ابن مسعود الذى يقول : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اقرأ على ففتحت سورة النساء . فلما بلغت : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » ^(١) رأيت عينيه تدرقان من الدمع ، فقال : حسبك الآن » ^(٢) .

رأى خطير فى مجال التوثيق ونقده :

ويميل أثر جفرى إلى هذا الرأى بل يؤيده حيث يقول : وهذا يطابق ما روى من خوف عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق لما استحر القتل بقرء اليمامة ... إلى أن يقول . وسبب الخوف هو قتل القرء الذين كانوا حفظوا القرآن . ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة لخم فهما « (٥)

١ ما قيل من أن النبي عليه السلام قبض ولم يجمع من القرآن شيء ليس المراد منه أن القرآن لم يكن مكتوباً حين ذلك ، بل المراد أنه لم يجمع في مصحف

٢ - الروايات الموثقة المتعددة التي تثبت أن القرآن الكريم : كان مجموعاً على عهد الرسول عليه السلام ، وأنه ما نزلت آية الا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا « (١) .

٣ - وخوف أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب حين استحرّ القتل بالقراء يوم اليمامة الاستدلال به غير موفق، لأن خوف الشيخين الجليلين ناشىء من زيادة التحرّى، والمبالغة فى الحرص على القرآن وحفظه ، وذلك لأن طريقة أداء هذا المكتوب لا تتأنى إلا عن طريق التلقين والرواية ومن ثم نشأ خوف الخليفين الجليلين من أن يموت القراء ، فتعثر طريقة الأداء « (٢) .

٤ - وأكبر ردّ على هذا رأى الاستشراقى ما ردّ به المستشرق الأمريكى (ف - بودلى) على رأى المستشرق آرثر جفرى وأتباعه ، فقد قال فى مجال توثيق النص القرآنى ما نصه :

« بين أيدينا كتاب معاصر فريد فى أصالته ، وفى سلامته ، لم يشك فى صحته كما أنزل أى شك جدى ، وهذا الكتاب هو القرآن ، وهو اليوم كما كان كتب لأول مرة تحت إشراف محمد . وعلى الرغم من أن الأفكار قد دوّنت فى الرقاع وسعف النخل ، والعظام فى لحظات غريبة ، فالسّور ، والآيات الأصلية قد حفظت ..

وهذا الكتاب ليس مجموعة أحاديث أو تقارير يفترض فيها أن محمداً قد قالها فهى نفس الآيات التى أملاها بنفسه يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر خلال حياته ..

وأن الحسنة الوحيدة فى طريقة (زيد) أنها كانت أمينة فوق الشبهات فلم يفعل شيئاً ليضيف فقرات ، أو يضع جُمْلَ رَبط ، أو يحذف ، لقد عمل بإخلاص لا يمكن تصوره .. إلى أن يقول : والمهم هو أن القرآن هو العمل الوحيد الذى عاش ... دون أن يبدل فيه ، ولا يوجد شىء يمكن أن يقارن بهذا أدنى مقارنة فى الديانة اليهودية : ولا فى الديانة المسيحية « (٣) .

(١) مقدمتان فى علوم القرآن / ٥ .

(٢) انظر : القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية / ٥ للدكتور عبد العال سالم مكرم .

(٣) انظر : تاريخ القرآن ، وغرائب رسمه ، وحكمه لمحمد طاهر بن عبدالقادر الكردى / ٦٨ ، ٦٩ .